

تمثيلات اللغة في الخطاب الاجتماعي النبوي: خطاب إصلاح ذات البين نموذجاً

The language forms in the Prophet discourse of social Discourse set things right between you as model

د. مصطفى أحمد قنبر

وزارة التعليم والتعليم العالي (دولة قطر)

mqnbr@yahoo.com

تاريخ القبول: 2018/09/01

تاريخ المراجعة: 2018/07/28

تاريخ الإبداع: 2018/04/23

الملخص:

في هذا البحث حاولنا دراسة واحد من الخطابات الاجتماعية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم في الأنصار، بالوقوف على تمثيلات اللغة في هذا الخطاب. وقد أظهرت الدراسة مدى وعي المتكلم بدوره، وفهمه للمتلقى، ونجاحه في إيصال رسالته، والتي تجلت في الإقناع والتأثير.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الاجتماعي النبوي; المتكلم; المتلقى; الإقناع; التأثير.

Astract:

In this research we tried studying one social discourses of the Prophet Muhammad (salaah allah alayh wa sallam) in (Alansar), with contemplate on The language forms in this discourse.

The study appeared extent of The speaker's realization to his role, and his understanding of the recipient and Influencing. and his Success in Access of his message and that It appeared in the Persuasion

Key-wors: discourses; Prophet Muhammad; language; speaker's realization; the Persuasion

توطئة:

اللغة ومنها الكلام هبة تفضل بها الباري جلَّ وعلا على ذلكم الإنسان دون غيره من الكائنات، جاء في محكم التنزيل: " الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)" سورة الرحمن. وفي المقصود بالبيان قال الإمام القرطبي في تفسيره: "عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) أسماء كل شيء. وَقِيلَ: عَلَّمَهُ اللُّغَاتِ كُلَّهَا. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَابْنِ كَيْسَانَ: الْإِنْسَانُ هَاهُنَا يُرَادُ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْبَيَانُ بَيَانُ الْحَلَالِ مِنَ الْحَرَامِ، وَالْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ. وَقِيلَ: مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، لِأَنَّهُ بَيَّنَّ عَنِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَيَوْمَ الدِّينِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: (الْبَيَانَ) الْخَيْرُ وَالشَّرُّ. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: هُوَ مَا يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ، وَقَالَهُ قَتَادَةُ. وَقِيلَ: (الْإِنْسَانَ) يُرَادُ بِهِ جَمِيعُ النَّاسِ فَهُوَ اسْمٌ لِلْجِنْسِ وَ(الْبَيَانَ) عَلَى هَذَا الْكَلَامِ وَالْفَهْمُ، وَهُوَ مِمَّا فَضَّلَ بِهِ الْإِنْسَانُ عَلَى سَائِرِ الْحَيَوَانَ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: عَلَّمَ كُلَّ قَوْمٍ لِسَانَهُمُ الَّذِي يَتَكَلَّمُونَ بِهِ. وَقَالَ يَمَانُ: الْكِتَابَةُ وَالْخَطُّ بِالْقَلَمِ نَظِيرُهُ: (عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)".⁽¹⁾

ذلك أن هذا الكلام يستطيع به هذا المخلوق التعبير عن حاجاته والتنفيس عما يعتلج في صدره، والإبانة عن مشاعره وأحاسيسه، فضلا عن التواصل مع غيره من بني جنسه، بل ومع غيره من الكائنات الحية الأخرى التي تشاركه الحياة على هذا الكوكب.

ولم يكن الكلام - في أغلب حالاته - يقال إلا ليُسمع من الآخرين، وفي درجة أعلى ليُفهم، وفي مرحلة أرقى ليتأثر به المتلقي له ويتجاوب معه، وهنا يأتي الفعل الكلامي أكله وتظهر آثاره وتبرز نتائجه.

وكثيرًا ما يقع على عاتق اللغة بما تمتلكه من طاقات تعبيرية هائلة رآب الصدع وإصلاح ما أفسده سوء الفهم من الكلام أو الأفعال، أو تبعات السلوكيات القولية والفعلية المقصودة ومعالجة آثارها، أو العكس فتكون وسيلة في بث الكراهية ونشر الفتن وإيقاد نار الحرب. تأتي اللغة فتتبع ذلك وتتقصاه لشرحه وبيان غرضه، حتى يمكن البناء عليه أو نقضه وتفنيده مزاعمه؛ فتنتقى من مخزونات مفردات وتراكيب وأساليب يكون همها الأول ومقصدها الأساس النجاح في ذلك إقناعًا ثم تأثيرًا؛ ولذا يعول جل السياسيون والمصلحون على الحوار كونه من أنجع الوسائل لحل كبريات الأزمات، وإحدى وسائل التفاهم والتقارب والتعايش بين الأفراد والمجتمعات والقوميات في عالم أضحت فيه الصراعات والنزاعات خصيصة تميّزه من غيره.

ومن ثم فإن المقصد أو الغرض هو المحرك الأول لإنشاء الكلام وانتقاء مفرداته، وتوخي معاني النحو؛ من أجل إنتاج كلام معبر عن هذا الغرض أو ذاك المقصد، وقد أشار إلى ذلك العلامة عبد القاهر الجرجاني قبل منظري الدراسات النصية المحدثين بقرون، حين تحدث عن هذه الصناعة الإنسانية العجيبة، وكيف أن محركها الأساس هو الغرض أو المقصد حيث لا فضل للفظ أو تركيب إلا بحسب الموضوع، وبحسب المعنى الذي تُريد والغرض الذي تؤم. ومثل لذلك بالأصباغ التي تُعمل منها الصور والنقوش، وكيف أن الرجل قد تهدي في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج، إلى ضرب من التخير والتدبر في أنفاس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها لها وترتيبه إياها، إلى ما لم يتهدد إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخيها معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول "النظم".⁽²⁾

وهذه النظرة الفاحصة الدقيقة من عبقرية العربية الجرجاني هي المرحلة الأولى من مراحل إنتاج الخطاب الذي توخي فيه صاحبه أو ما يسمى بالمرسل أحوال المرسل إليه أو المتلقي، فالخطاب كما الصورة والنقش التي تُتخير لها المكونات من الأصباغ بكيفيات معينة يحكمها التنسيق والنظام حتى تخرج على الوجه الذي يُراد لها... كذلك مكونات الخطاب التي هي مجموعة من الجمل والتراكيب اللغوية يحكمها الانتظام والتنسيق وإلا كانت ضربًا من العبث لا معنى له. ولن تصبح نصًا مفهومًا يمكن به أن يتحقق به نوعًا من الاتصال.⁽³⁾

عناصر الخطاب: للخطاب عناصر أساسية ثلاثة يتكون منها، ومنها يستمد وجوده، وتشكل ماهيته، وليس من تفاضل في الأهمية بين هذه العناصر؛ إذ كل واحد منها ذو أهمية في هذا الكيان بحيث يتوقف وجوده على وجود الآخر؛ وعليه يصعب أن يستقل أحدها أو يُستغنى عنه ضمن دائرة مكونات الخطاب، وهي نفسها عناصر الرسالة الاتصالية الرئيسة التي تتكون من: المرسل أو المتكلم أو الباث، والمستقبل أو السامع أو المتلقي، ثم الرسالة وهي المضمون الخطابي.

أ- المرسل: المرسل أو الباث أو المتكلم في الخطاب، هو صاحب الخطاب ومنتجه، وبدونه لا ميلاد لخطاب ولا وجود له، وهو ذلك الشخص الذي حركته القصدية وقامت بتحريضه على إنتاج خطاب ما بصورة فردية أو مؤسسية تعبر عن شخصه أو عن المؤسسة التي ينتمي إليها.⁽⁴⁾ وذلك بانتقاء مجموعة الألفاظ والتراكيب وفق مستويات اللغة التي تناسب خطاب المتلقين وعلى قواعد تأليف الكلام، وإلا مُنِيَ المرسل بالفشل في إيصال ما يريد، وصار كمن (يؤذن في مالطا).

وهذا ما عناه عبقرى العربية الجاحظ حين قال نقلا عن بشر بن المعتمر، مبينا العلاقة بين المتكلم والمتلقي والتي يوجها إنتاج خطاب ناجح: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات."⁽⁵⁾

ب- المستقبل: وهو المرسل إليه أو المخاطب، وهو الذي صيغ الخطاب من أجله، فوجوده فاعل ومؤثر في عملية الاتصال، فالأجله تحركت القصدية عند المرسل، ولمراعاة أحواله فاضل المتكلم بين كلام وكلام، بل وتعتمد ألا ينطق بما اعتاده من لهجات خشية أن تعوق عملية الاتصال والفهم، أو أن يُنعت بالتعالي والتكبر من قبل متلقيه.* وهذا المستقبل أو المتلقي يندر في الخطابات أن يكون فردًا، إذ اقترنت الخطابات خاصة السياسية والاجتماعية بوجود جماهير من المتلقين، قد تتقارب مستوياتهم الثقافية في الريف أو المجتمعات التقليدية، وقد تتباعد في الحواضر والمدن، أو في الإقليم والدولة.

وقد يتبادل الطرفان الوظيفة فيصير المستقبل مرسلًا والمرسل مستقبلًا، خاصة في الخطابات السياسية والاجتماعية حين تتوالى الخطابات من الطرفين. وتتحكم هنا عدة عوامل في نجاح المرسل في جذب اهتمام متلقيه، أو إغراضهم عن كلامه، منها: شخصية المتكلم ومكانته، مضامين الخطاب الذي يلقيه، ما مدى إنصاته لخطاب المتلقين له أو انشغاله عنه، وما تعليقاته على كلام مخاطبيه، هل بادلهم نفس النظرات التي توجي بالاهتمام؟ أو قام بتدوين ما يروه هم مهما في خطابهم إياه، خاصة إن كان يتعلق الأمر بمطالب جماعية أو شعبية؟

فقد وجد بعض الباحثين أن النظر إلى الجمهور أثناء الكلام يؤثر على العملية الإقناعية أكثر مما لو أن الخطيب جال بنظره دون تركيز، لأن النظر إلى الجمهور يزيد الثقة بالمتكلم، كذلك فإن تقييم الجمهور للخطاب ومدى جودته يؤثر على الثقة الممنوحة للخطيب.⁽⁶⁾

ج- الرسالة: وهي تلك الشفرة السرية التي يفك رموزها الطرف الآخر وهو المستقبل.⁽⁷⁾ وهو الكلام الذي ضمّنه المرسل المعاني والدلالات التي أرادها أن تصل للمتلقي، وقد راعى المتكلم الألفاظ والعبارات التي لها تأثير أو وقع خاص في هذا المخاطب وفقًا لتنشئته الاجتماعية والثقافية، ووفقًا لمعاني ودلالات الألفاظ

والعبارات عند جماهير المتلقين. فكم من الألفاظ تحمل معاني الاحترام والتقدير في أوساط اجتماعية ما أو تعبر عن مشاعر وجدانية أو نفسية، لكن بعضها غير مقبول في مجتمعات أخرى إذ تُعد من الألفاظ المحظور التفوه بها لأنها تخدش الحياء، وفي حين تعبر ألفاظ وتراكيب أخرى عن الرفض نجدها عند متلقين أُخر تعبر عن القبول وربما الإعجاب.

وهذا ما عُرف عند البلاغيين العرب بمراعاة المقام، فجاءت عبارتهم الشهيرة (لكل مقام مقال) فحين قال البلاغيون "لكل مقام مقال" ولكل كلمة مع صاحبها مقام" وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء، ولم يكن "مالينوفسكي" (Malinowski) وهو يصوغ مصطلحه الشهير (Context Of Situation) يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها، إن الذين عرفوا هذا المفهوم سجلوه في كتب لهم تحت اصطلاح المقام، ولكن كتبهم لم تجد من الدعاية والانتشار على المستوى العلمي ما وجده اصطلاح مالينوفسكي.⁽⁸⁾

وظائف الخطاب الاجتماعي: لا يقل الخطاب الاجتماعي أهمية عن أنواع الخطابات الأخرى من دينية وثقافية وسياسية وسردية وغيرها، وإذا كان الخطاب السياسي قد نال حظاً كبيراً من زمرة الاهتمامات البحثية في مجالات العلوم الإنسانية، فإن هذا النوع من الخطاب ليس منفصلاً عن الخطاب الاجتماعي بل أرى أنه يدخل ضمن دائرة الاهتمامات الاجتماعية أيضاً، إذ هو خطاب موجه في كل حالاته إلى المجتمع بكل تنوعاته الثقافية والفكرية. بل يمكن القول إن الخطاب السياسي ما هو إلا خطاب اجتماعي من حيث موضوعه ومن حيث متلقيه، حتى من حيث منتجه الذي هو متكلم من هذا المجتمع وليس غريباً عنه، بل هو عضو فاعل فيه مؤثر ومتأثر.

وإذا كان الخطاب الاجتماعي موضوعه المجتمع وينزع نوعاً ما بعيداً عن الرسميات؛ فإن وظائفه تتعلق بالمجتمع في إطاره العفوي؛ ومن ثم فإنها تتباين من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى بيئة؛ حيث المجتمعات سماتها التطور... لكن هذه الوظائف يمكن أن تتبلور في إطار عام تتلاقى فيه، وهذا يعني أن هذه الوظائف منفتحة أو تتميز بالمرونة وعدم الجمود، ويمكن للباحث في علم اللغة الاجتماعي أن يرصد كل هذه الظواهر. أما عن صاحب هذا الخطاب أو منتجه فما هو إلا شخص تبوأ مكانة اجتماعية بين عشيرته، أو زعامة ما في قبيلته، أو وضعاً متميزاً في عائلته، أو كان ذو هدف ما أهّل لأني يرتقي هذا المنبر في مجتمعه.

أما عن وظائف الخطاب الاجتماعي فيمكن القول إن بعضها قد يجنح إلى السياسي الاجتماعي أو الصبغة الرسمية خاصة في بعض المجتمعات القبليّة أو العشائرية وكذلك الريفية التي تحررت كثيراً من أسر التقاليد والأعراف المتوارثة التي حكمتها ردحاً من الزمن، وصارت تتقبل المحدثات في أكثر نظم الحياة والعمل وشاركت

بنصيب لا يمكن تجاهله في التنظيمات الحزبية والحركات السياسية في الدولة الحديثة. ويمكن رصد وظائف هذا الخطاب في الآتي:

بث المعلومات، المشاركة الوجدانية والاجتماعية، إصلاح ذات البين.

أ - بث المعلومات: لا تخلو فقرات الخطاب الاجتماعي في موضوعاته المتباينة من نشر معلومات أو بثها⁽⁹⁾، خاصة عندما تُعرض لمضامين تخص أشخاص أو مواقف تبدو خفية على المتلقين أو تشوبها الضبابية وتحتاج إلى كشف وبيان. وتحدد قيمة هذه المعلومات ووزنها في الوسط المجتمعي حسب الباث لها (منتج الخطاب) ومكانته، وحسب الموضوعات المتعلقة بهذه المعلومات، وقيمتها عند المتلقين.

ومنذ الجاهلية عرف العرب نوعاً من الخطابات الاجتماعية التي كان من أهدافها الرئيسة بث المعلومات ونشرها، وكان يتزعم هذا النوع من الخطابات من اشتغل بالكهانة رجالاً ونساءً، ومضامين هذه الخطابات كانت تتعلق بمعلومات عن المستقبل وما ينتظر أصحابه من مصير وما تتصل به من حوادث فردية أو مجتمعية في نواح دينية وسياسية ومعاشية... ومنها ما كان تعبيراً عن رؤى منامية، وقد أفرَد لها صاحب كتاب (جمهرة خطب العرب) قسمين من الجزء الأول في هذا الكتاب.⁽¹⁰⁾

ويعد الكلام خاصة في الخطابات الاجتماعية من أهم الوسائل التي تمكن الفرد من نقل صورته أو ملامحه الشخصية للآخرين، حتى يتمكن الآخرون من تقييمها من خلال ما يقوله الفرد ومن خلال طريقته في الكلام، ومن الناس من يودون لو ينقلون إلى من حولهم صورة الكياسة والتهديب، لأن ذلك سيزيد من شعبيتهم لدى الآخرين.⁽¹¹⁾ خاصة عندما يكون لهذه الخطابات مآرب شخصي يسعى أن يصل إليه المتكلم، ولعل من الأمثلة البَيِّنَة على هذا ما نراه من بعض الشباب عندما يتحدث إلى أسرة فتاة بغرض خطبتها للزواج، وكذلك أسرة الفتاة عندما تدلي بمعلومات عنها وعن الفتاة، وقد تكون هذه المعلومات التي يحملها الخطاب هنا جديدة على كلا الطرفين، ويحرص الطرفان على تحري الدبلوماسية الاجتماعية في الحديث، وإظهار صورة إيجابية عن شخصية كليهما.

ويتوقف تحقق الهدف من بث هذه المعلومات على مقدرة الباث (المتكلم) في الإقناع والتأثير، وعلى نوعية المتلقين، فخطاب العامة غير خطاب متوسطي الثقافة، غير خطاب المثقفين، وهذا يوجب على المتكلم تطوير أدواته في الخطاب والإقناع ليحقق نوعاً من التواصل يفضي إلى الوصول إلى ما خطط له قبل الشروع في استعراض عناصر خطابه.

وكثيراً ما تبدو علامات الإقناع والتأثير في جمهور المتلقين على الفور - في بعض المجتمعات العربية - من الصياح بصوت مرتفع بلفظ الجلالة ممدوداً "اللااااااااااه" و "الله أكبر" إعجاباً، أو بما يدل على التحسر

والاستنكار حين ينطق أحدهم بـ (لا حول ولا قوة إلا بالله)، أو الدعاء بالرحمة والمغفرة حين تبث معلومات عن مآثر الفقيد التي كانت في طي الكتمان.

وقد تتصاعد درجات التأثير إلى القيام ببعض السلوكيات السلبية - يصاحبها على الوجه علامات الغضب - مثل السب والقذف أو التشاجر والتشابك بالأيدي.... ، أو تجنح إلى الإيجابية: كما يظهر في التصافح والمعانقة مع علامات تأثرت تظهر في الوجه من الرضا والفرح.

ب - المشاركة الوجدانية والاجتماعية: من الخطابات الاجتماعية في المجتمعات العربية ما يتعلق بالمناسبات المختلفة التي تعيشها الأفراد، والأسر، وكذلك الفئات التي تتشكل في صور تنظيمات أو تجمعات نقابية أو عمالية أو اجتماعية وهي التي حملت على عاتقها الدفاع عن حقوق المنتمين إليها، وتقديم خدمات مختلفة للأفراد والأسر.

يبدو هذا جليا في خطابات النكاح والتأبين، حيث الإشادة بالشخصيات التي عُقدت الحفلات والملتقيات من أجلها. وبينما يشيع في خطابات الأولى عبارات تمتلئ بالفرح والحبور، يسود الأخرى عبارات تفيض بالأسى والحزن، وسرد إنجازات الفقيد، ومواقف النبل والشهامة والإيجابية ... التي ربما تخفى على الآخرين. وتُظهر الخطابات في التنظيمات والتجمعات العمالية والاجتماعية درجة المستوى الفكري والثقافي للمنتمين إليها واهتماماتهم المهنية، حيث تشيع عبارات تحث على العمل، والتضامن، والاتحاد، والتمسك بالحقوق والدفاع عنها، ورعاية العمال... وغيرها، وغالبًا ما يختلط فيها الاجتماعي بالسياسي.

أمَّا المتلقون في هذه الخطابات فهم يعبرون عن الوسط الاجتماعي الذي ينحدر منه منظمو هذه الملتقيات وأصحابها، وإن كانت - على الأرجح - تضم مستويات مجتمعية وثقافية مختلفة. ومن ثمَّ فإن المتكلم في هذه الخطابات يراعي هذه المستويات، وإن كان - في الغالب - ليس بعيدًا عنهم ثقافيًا وفكريًا. فخطاب تأبين أستاذ في الجامعة أو مفكر أو أديب، غير خطاب تأبين عضو في نقابة عمالية. والمتلقون هنا غير المتلقين هناك. كما أن الخطاب في جمهور ينتمي إلى طبقة عمالية كالأطباء، غير الخطابات الموجهة إلى المحامين، أو المنتمين إلى أعمال الزراعة والفلاحة أو عمال البناء والتشييد.

وتبدو بعض الاستجابات السريعة من المتلقين في صور التصفيق - الذي إن قلَّ في بعض التجمعات الخطابية، فإنه يكثر في تجمعات أخرى، ناهيك عن بعض الأبيات الشعرية أو العبارات المأثورة والكلمات والأصوات، وربما النكات المضحكة التي غالبا ما تقاطع المتكلم في خطابه، والتي تعبر مدى تقبل المتلقي لما جاء في الخطاب، وفي مجملها تعبر عن مواقف إيجابية أو سلبية من الخطاب ومرسله، وتتباين تلك الاستجابات من تجمع خطابي لآخر.

وقد عرفت العرب بعضاً من هذه الخطابات قبل الإسلام، ولعل خطبة أبي طالب عند زواج النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة رضي الله عنها - خير شاهد على ذلك، وقد حضر هذه المناسبة بنو هاشم ورؤساء سائر مضر وأبو بكر، ومما جاء فيها: " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَزَرَعَ إِسْمَاعِيلَ، وَضَيْضَى مَعَدَ، وَعَنْصَرَ مُضَرَ، وَجَعَلَنَا حَضَنَةَ بَيْتِهِ وَسَوَاسَ حَرَمِهِ وَجَعَلَ لَنَا بَيْتًا مَحْجُوبًا وَحَرَمًا آمِنًا، وَجَعَلَنَا الْحُكَّامَ عَلَى النَّاسِ. ثُمَّ إِنَّ ابْنَ أَخِي هَذَا مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ لَا يُوزَنُ بِهِ رَجُلٌ إِلَّا رَجَحَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي الْمَالِ قَلٌّ؛ فَإِنَّ الْمَالَ ظَلَّ زَايِلٌ وَأَمْرٌ حَائِلٌ. وَمُحَمَّدٌ مَنْ قَدْ عَرَفْتُمْ قَرَابَتَهُ، وَقَدْ خُطِبَ خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ وَبَدَلَ لَهَا مِنَ الصَّدَاقِ مَا آجِلُهُ وَعَاجِلُهُ مِنْ مَالِي كَذَا، وَهُوَ وَاللَّهُ بَعْدَ هَذَا لَهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ وَخُطْبٌ جَلِيلٌ." (12)

ج - إصلاح ذات البين: عرفت العرب هذا النوع من الخطابات منذ العصر الجاهلي، ومن أمثلة ذلك ما قام به مرثد الخير من إصلاح بين سبيع بن الحارث، وبين ميثم بن مثنوب حين تنازعا الشرف حتى تشاحنا وخيف أن يقع بين حيهما شر، وقد أحضرهما مرثد الخير وخطب فيهما محذرا من الشقاق والشحناء، ثم ترك المجال ليخطب سبيع فميثم. (13)

ولازالت إلى اليوم تعيش هذه الخطابات حين تُعقد مجالس الصلح العرفية أو لجان الصلح؛ للتدخل فيما يحدث من خلافات أو مشاجرات بين الأسر أو الأفراد في المجتمعات الريفية والبدوية العربية. ففي المجتمعات التقليدية العربية بعيداً عن صخب المدينة وضجيجها، تتواجد الزعامات القبلية والعشائرية والعائلية. (14) ويكون لهذه الزعامات القول الفصل بما يصدر من أحكام في بعض القضايا والنزاعات، وربما تكون هذه الأحكام بعيدة عن الأصول الفقهية أو التشريعات القانونية.

وفي كثير من هذه المجتمعات تعهد السلطات المحلية إلى هذه الزعامات بالعمل على وضع حلول للصراعات أو الخلافات حين تعجز هذه السلطات عن بسط الأمن والهدوء. ويُعهد فيها لرجال نافذين في هذه المجتمعات إضافة لبعض العلماء أو الفقهاء للقيام بمهام التوفيق والإصلاح خاصة في حالات الثأر. (15) وتتوالى الخطابات في هذه التجمعات من العلماء والنافذين من الزعامات المحلية والقبلية وممثلي السلطات الرسمية التي تدعو إلى الصلح ونشر ثقافة السلم وترك الشقاق والصراع.

وتمتاز بعض هذه الخطابات بالعفوية، والبعد عن الرسمية، ومراعاة مستويات المتلقين الثقافية في تخير الألفاظ والأساليب، حيث تطغى اللهجات المحلية في مثل هذا النوع من الخطابات على العربية الفصحى غالباً. وتكثر الاستشهادات من القرآن الكريم والسنة النبوية، وسرد الوقائع التاريخية والأمثلة المعاشة من واقع الحياة، ناهيك عن التأكيد على بيان الصلات الإنسانية والوطنية على مستوى القرية أو البلدية أو الولاية، وقبلها روابط الدين والعقيدة؛ بما يعزز من الهدف الذي يسعى إليه هذا النوع من الخطابات. (16) وكلما كان المتكلم قريباً من مستوى اللهجة السائدة في هذه المجتمعات في ألفاظه وتراكيبه، وأمثلته

الاستشهادية وقصصه التي تنتمي إلى ذات الثقافة الشعبية؛ كلما كانت مضامين خطابه ومراميها أسرع نفاذًا إلى أسماع متلقيه وأكثر تأثيرًا ممن يجهل هذا الأمر.

وتظهر علامات الإقناع والتأثر بالخطابات التي تسلك هذا الهدف سريعًا وتتجلى في التصافح والتعانق بين طرفي النزاع يصاحبها علامات من التأثر تبدو واضحة في الوجه من البشر والسرور، مع التصفيق الحار إعلانًا بإنهاء النزاعات ورأب الصدع وعودة السلم والأمن إلى ربوع المجتمع. وربما تتوج بكتابة تعهدات من الطرفين أو إعلان المصاهرة بين طرفي النزاع.

وقد لعبت اللغة بتطويعها من جانب مستخدميها كل هذا بعد أن ظلت هذه المجتمعات تعيش في خوف وصراعات سنوات طوال ربما حصدت أرواح العشرات من خيرة الشباب، وكانت اللغة هنا وبكلمات قليلة لها كل هذا الدور الإيجابي، وربما كانت بكلمات أقل أدت الدور السليبي الذي أشعل نار الفتنة وقود الصراعات.

تحليل الخطاب الاجتماعي النبوي (خطاب إصلاح ذات البين): لم يكن المجتمع النبوي في المدينة المنورة مجتمعًا ملانكيًا، بل كان مجتمعًا بشريًا تتعاوره أحيانا الخلافات أو المشكلات التي كانت توجب تدخل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لحلها ورأب الصدع الذي نتج عنها، وقد حفظت لنا السنة المطهرة هذه المواقف. وكانت خطابه صلى الله عليه وسلم في هذه المواقف بمثابة البلسم الشافي والحجة المقنعة التي يظهر أثرها سريعًا في إنهاء الخلاف، وزوال الشقاق، وصفاء النفوس.

ومن هذه الخطابات النبوية خطابه صلى الله عليه وسلم في الأنصار حين أبلغه سعد بن عبادة بقوله: " يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ." (17) ذلك أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بعد أن منَّ الله عليه بالنصر في حنين، وقد أصاب المسلمون كثيرا الغنائم أعطى المؤلفَةَ قُلُوبَهُمْ، وَكَانُوا أَشْرَافًا مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، يَتَأَلَّفُهُمْ وَيَتَأَلَّفُ بِهِمْ قَوْمَهُمْ، فَأَعْطَى أَبَا سُفْيَانَ ابْنَ حَرْبٍ مِائَةَ بَعِيرٍ، وَأَعْطَى ابْنَ مِعَاوِيَةَ مِائَةَ بَعِيرٍ، وَأَعْطَى حَكِيمَ بْنَ حَزَامٍ مِائَةَ بَعِيرٍ، وَأَعْطَى الْحَارِثَ بْنَ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ، أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ مِائَةَ بَعِيرٍ. وغيرهم من بني عبد الدار، وبني مخزوم، وبني عدي. (18)

إثر ذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم سعدًا أن يجمع قومه: " فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَاتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَحَمِدَ اللَّهَ، وَاتَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: " يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، مَا قَالَهُ بَلَعْنِي عَنْكُمْ؟ وَوَجِدُهُ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ". قَالُوا: بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ وَأَفْضَلُ، قَالَ: " أَلَا تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ ". قَالُوا: وَمِمَّاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمُنُّ وَالْفَضْلُ؟ قَالَ: " أَمَا وَاللَّهِ، لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصِدْقْتُمْ وَلَصِدْقَتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَدِّبًا فَصَدَقْنَاكَ، وَمَخْدُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا

فَأَوَيْتَاكَ، وَعَائِلًا فَوَاسِيْنَاكَ. أَوْجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا؟ تَأَلَّفْتُ قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا؟ وَوَكَلْتَكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ". قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَسَمًا وَحَقًّا. ثُمَّ أَنْصَرَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- وَتَفَرَّقُوا.⁽¹⁹⁾

وقبل أن ندخل إلى تحليل الخطاب نعرج قليلا على الظروف المحيطة بإنتاج هذا الخطاب وعناصره التي يتشكل منها. أما عن منتج هذا الخطاب فهو النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم الذي رضع الفصاحة العربية صغيراً في بادية بني سعد، ثم جاءه الوحي بالقرآن الذي أعجز أرباب الفصاحة والبيان؛ فكان كلامه صلى الله عليه وسلم في أعلى درجات الفصاحة والبيان بعد القرآن، قال أديب العربية أبو عمرو الجاحظ عن كلامه صلى الله عليه وسلم في ميزان البيان العربي: " وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: وما أنا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ، فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الأفهام، وقلّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلّة حاجة السامع إلى معاودته. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً."⁽²⁰⁾

ويؤكد ما ذهب إليه الجاحظ، العلامة ابن الأثير الجزري، عندما يشير إلى مراعاته صلى الله عليه وسلم لأحوال المخاطبين، وامتلاكه لمخزون لغوي هائل، فضلا عن توافر توظيف استراتيجيات الإقناع وتوظيفها في الحوار مع المتلقين، يقول ابن الأثير: "وقد عرفت - أيديك الله وإيانا بلطفه وتوفيقه - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَفْصَحَ الْعَرَبِ لِسَانًا، وَأَوْضَحَهُمْ بَيَانًا. وَأَعَدَّهُمْ نُطْقًا، وَأَسَدَّهُمْ لَفْظًا. وَأَبَيَّنَهُمْ لِهَجَّةً، وَأَقْوَمَهُمْ حُجَّةً. وَأَعَرَفَهُمْ بِمَوَاقِعِ الْخُطَابِ، وَأَهْدَاهُمْ إِلَى طُرُقِ الصَّوَابِ، تَأْيِيدًا إِلَهِيًّا، وَلُطْفًا سَمَاوِيًّا، وَعِنَايَةً رَبَّانِيَّةً، وَرِعَايَةً رُوحَانِيَّةً، حَتَّى لَقِدَ قَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - وَسَمِعَهُ يُخَاطَبُ وَقَدْ بَنَى نَهْدًا -: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَحْنُ بَنُو أَبِي وَاحِدٍ، وَنَرَاكَ تَكَلِّمَ وَفُودَ الْعَرَبِ بِمَا لَانْفَهُمْ أَكْثَرُ! فَقَالَ: أَدْبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي، وَرَبَّيْتُ فِي بَنِي سَعْدِ. فَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَاطَبُ الْعَرَبَ عَلَى اخْتِلَافِ شُعُوبِهِمْ وَقِبَائِلِهِمْ، وَتَبَايُنِ بَطُونِهِمْ وَأَفْخَاذِهِمْ وَفَصَائِلِهِمْ، كَلًّا مِنْهُمْ بِمَا يَفْهَمُونَ، وَيَحَادِثُهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ. وَلِهَذَا قَالَ - صَدَّقَ اللَّهُ قَوْلَهُ -: أُمِرْتُ أَنْ أَخَاطَبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ، فَكَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَعْلَمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ مِنْ بَنِي أَبِيهِ، وَجَمَعَ فِيهِ مِنَ الْمَعَارِفِ مَا

تفرّق ولم يوجد في قاصي العرب ودانیه. وكان أصحابه رضي الله عنهم ومن يفد عليه من العرب يعرفون أكثر ما يقوله، وما جهلوه سألوه عنه فيوضحه لهم."⁽²¹⁾

وقد كانت معرفته صلى الله عليه وسلم بالمتلقين ومراعاة أحوالهم أثرها في الإقناع والتغيير والتأثير، فمخاطبة العقول والقلوب فن لا يجيده إلا من يمتلك أدوات الإقناع مع توافر الظروف المناسبة لإحداث التأثير، فمهارات الاتصال والحوار المقنع للآخر تعد وسائل تأثيرية بالغة في تغيير المفاهيم، ولا يتأتى ذلك إلا لمن أحاط بمعرفة أغوار النفس البشرية وفهم مستوى تفكيرها وأسلوب أدائها الفعلي الذي ينعكس في سلوكها وتصرفاتها فيمكن على أساس ذلك قياس ومعرفة طريقة التعامل معها.⁽²²⁾

أما عن المتلقين لهذا الخطاب النبوي فهم جماعة من الأنصار وما أدراك ما الأنصار؟ إنهم المسلمون من الأوس والخزرج، وقد أطلق عليهم هذا اللفظ بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى يثرب، والذي أطلقه عليهم هو الله سبحانه وتعالى لنصرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، ولموقفهم الكريم من المهاجرين الذين أووا إليهم من مكة وغيرها في صحبته صلوات الله وسلامه عليه. وقد أثنى عليهم القرآن الكريم في عدة مواضع، وذكرت مناقبهم في صحيح السنة المطهرة.⁽²³⁾

تلك هي الظروف المحيطة بإنتاج هذا الخطاب النبوي الكريم، وتلك عناصره، وقد أظهرت رواية الخطاب في الحديث الشريف القصصية من وراء إنتاجه، كما بيّنت كذلك كيف تحققت أهدافه إقناعاً وتأثيراً قولاً وفعلاً. وهذا ما سنحاول أن نجليه - إن شاء الله - في تحليلنا لهذا الخطاب.

تهيئة البيئة النفسية للخطاب: ما إن نما إلى علم منتج الخطاب أو المرسل محمد صلى الله عليه وسلم ما كان من الأنصار حين دخل عليه سعد بن عبادة فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْقِيءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتُ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ سَيِّءٌ - حتى أمر أن يجتمع بهم. وفي طلبه صلى الله عليه وسلم الاجتماع بهم تهيئة للأجواء لقبول خطاب المرسل بالاستماع أولاً فالإقناع ثم التأثير. وما كان التجاوب من المتلقين بالحضور إلا رغبة في إنهاء حالة الوجد التي أصابهم مما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد عبّر راوي الحديث على ما دار على هامش الخطاب النبوي وقبل إلقائه - عن الأثر الذي تركه استثناء الأنصار من العطية، حين قال " وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - قَوْمَهُ. " والأنصار هم من هم من الدولة وقائدها المخاطب. كل هذا ينبئ عن وضع نفسي سلبى أطبق على القوم لا يحسن السكوت عليه، أو تجاهله، أو إهماله بعض الوقت ريثما تهدأ النفوس قليلاً، لكن كل ذلك لم يحدث من منتج الخطاب الذي استشعر خطورة ما عليه القوم من الوجد؛ مما استلزم التحرك بسرعة لتدارك الأمر بتوضيحه وبيان علله، وقبل هذا لا بد من تهيئة البيئة المحيطة بالخطاب وعناصره... وهذا ما فعله المخاطب صلى الله عليه وسلم.

مضامين الخطاب النبوي:

اشتمل الخطاب الاجتماعي النبوي الموجه من النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار بغرض إصلاح ذات اليّين على المضامين أو الموضوعات الآتية:

- الاستفهام عن حقيقة ما بلغ المخاطب صلى الله عليه وسلم عن المتلقين.
- بيان من الله وفضله على المتلقين بالهدى بعد الضلال، والغنى بعد الفقر...
- الإشادة بمواقف المتلقين العظيمة مع الرسول صلى الله عليه وسلم.
- بيان العلة في اختصاص قوم بالعطاء، بينما تمّ حرمان الأنصار منه.
- مكاسب المخاطبين بوجود الرسول بينهم لا يعادلها أيّ من متاع الدنيا.
- الانتساب للأنصار شرف عظيم، والسير على مسلكهم منهج سديد.
- الدعاء للأنصار وذرياتهم.

تلك هي المضامين التي حملتها الألفاظ والتراكيب في الخطاب النبوي الذي وجهه النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه من الأنصار؛ قصد إصلاح ذات البين؛ إثر ما كان منهم نتيجة حرمانهم من العطاء مع حسن بلائهم في الإسلام واختصاص قوم آخرين به لَمَّا يصلوا بعد إلى مرتبة الأنصار.

التأكيد على الموضوعات الكبرى: تحاول بعض الخطابات - خاصة السياسية- التأكيد على الموضوعات الكبرى من وجه نظر منتج الخطاب، وغالبًا ما يوجد بون ما بين رؤى طرفي الخطاب المتكلم والمتلقي حول أولوية الموضوعات أو ما يسمى بـ استراتيجية التأكيد على الموضوعات الكبرى (Strategy Of Emphasizing Macro Topics)

فبينما تنتظر جماهير المتلقين من منتج الخطاب تناول موضوعات ما يرون أنها ذات أولويات في حياتهم الراهنة إذا هم يشعرون بخيبة الأمل؛ إما لتجاهل هذه الموضوعات، أو تناولها تناوولا عابراً لا يليق بها. وقد بيّنت البحوث التجريبية أن تركيز النخب على الموضوعات العامة وتعريفات القضايا أو أطرها بكيفية ما، قد يكون لها أثر كبير في التفسير والرأي العام.⁽²⁴⁾

وفي الخطاب النبوي لم يكن المتكلم صلى الله عليه وسلم بعيداً عن اهتمامات متلقيه، فموضوع الخطاب الرئيس سببه ما أصابهم من وجدة إثر حرمانهم من الغنائم، واختصاص آخرين؛ ومن ثم سعى الخطاب إلى تفسير هذا القرار من منتج الخطاب. لكنّ تناول هذا الموضوع الرئيس جعل المتكلم يُضَمِّن خطابَه للمتلقين موضوعات أخرى لا تقل أهمية عن الموضوع الرئيس بل تفقّه بمراحل كثيرة؛ جعلت المتلقين ينتهون لها، ويدركون كم انحصرت تفكيرهم في هذه الدائرة البشرية النفعية الضيقة! وكيف غاب عنهم ما أختصوا به من فضل وما هم فيه من مكانة مرموقة في المجتمع دون غيرهم!

وضوح الرسالة:

إذا كانت اللغة عملية تواصلية لرسالة بين المرسل والمتلقي عناصرها:

المرسل الرسالة المتلقي

وكل فرد متكلم هو في الوقت نفسه مرسل ومستقبل لرسالته، بما أنه يستطيع إرسال الرسالة وفك رموزها - فإنه لن يرسل إلا ما يستطيع فك رموزه، لأن الرسالة المرسله إلى الطرف الآخر هي قبل كل شيء مرسله إلى صاحبها وهو ما يجيز القول إن الكلام يحدث في الذات أولاً. وفي الوقت نفسه فإن المستقبل المحلل للخطاب لا يحلله إلا في النطاق الذي يسمح له بقول ما يسمعه.⁽²⁵⁾ وتؤكد معظم الدراسات أن الرسالة المفهومة والواضحة تكون على درجة من الإقناع أكبر من الرسالة غير المفهومة.⁽²⁶⁾ ولا يختلف هذا الأمر من ثقافة إلى ثقافة أو من عصر إلى عصر، بل يكاد يكون عامًا حتى مع غير بني البشر.⁽²⁷⁾

وقد تميزت الرسالة التي حملها الخطاب النبوي بالوضوح، فلم تكن المعاني المقصودة ضبابية أو تحمل عدة معاني متناقضة، ولم تكن ألفاظها بعيدة عن المعهود من أنماط الخطاب السائدة في ذلك المجتمع، وكانت التراكيب جارية على سنن التأليف العربي... وكما نقل راوي الحديث فقد وصلت الرسالة النبوية المتلقين بالمعاني التي أرادها المرسل، فلم يحدث أن سأل واحد من المتلقين عن تركيب أو لفظ عبي عليه نتيجة غموض فيه، أو لبس في معناه، بل كان التجاوب من المتلقين برهانا على وصول الرسالة ووضوح مضامينها وسهولة تحليلها، ظهر ذلك في مقدمة الخطاب حين أجاب المتلقون " قَالُوا: بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ وَأَفْضَلُ... قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمُنُّ وَالْفَضْلُ؟ "، وفي ختام الخطاب حين كانت التجاوب مع الرسالة فعليًا كما أخبر راوي الحديث: " قَالَ: فَبِكَيْ الْقَوْمِ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ"، وقولياً كذلك: " وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَسَمًا وَحَظًّا." ثم هناك المؤشر البين والقوي على انتهاء الأزمة وتبدد سحبها وهو قول الراوي: " ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتَفَرَّقُوا" وما ذلك إلا لوصول الرسالة ووضوحها وتحقق مقاصدها كما أرادها المرسل صلى الله عليه وسلم.

إشراك المخاطب في إنتاج الخطاب: كثيرا ما تناول المشتغلون بالخطاب وتحليله العلاقة بين الخطاب والسلطة، وكيف أن للخطاب سلطة وهيمنة تمارس على أدمغة المتلقين، فلا يملكون لها ردا خاصة تلك التي تشتمل على قائمة بالمباح والمحظور. حيث تنزل مضامين الخطاب التي لا يُسمح فيها بالمراجعة أو التعقيب أو النقد إلا بما يتماشى مع خطها الذي تنطلق منه وتسير عليه أو عقيدتها الفكرية التي تنتهي إليها فيما يسمي بسيطرة الخطاب (Discourse Control) أو السلطة في الخطاب (Power In Discourse).⁽²⁸⁾

لكن أن يشرك منتج الخطاب جمهوره من المتلقين في إنتاج هذا الخطاب، فهذا من تواضعه صلى الله عليه وسلم، وسمة من السمات التي تطبع العلاقة بين المرسل والمتلقي. ومؤثر نفسي يودي بالمشارك/ المتلقي إلى

تفهّم قضايا الخطاب ثم الوصول إلى مرحلتي الإقناع فالتأثير. وهذا ما ظهر في إلحاح منتج الخطاب على متلقيه الإجابة عن الأسئلة، " أَلَا تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟" ... فكانت مقالاتهم: " بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ وَأَفْضَلُ "، و "وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمُنُّ وَالْفَضْلُ؟" ، و "رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَسَمًا وَحَقًّا."

إجلال المتلقي وتوقيره أثناء مخاطبته: لن تفضي قلة الاهتمام بالمتلقي والنظر إليه بالدونية . خاصة إن كان المتكلم من صانعي القرارات - إلا إلى مزيد من الهوة بين طرفي الخطاب، ولذا نجد كثيرًا من منتجي الخطابات - خاصة السياسية - يُبدي احترامه وتقديره للمتلقين - ولو ظاهريًا - من خلال ما يخلعه عليهم من صفات الإيلاء والعزة والانتساب للوطنية... وخطابات بعض الساسة العرب خاصة في النصف الثاني من القرن الماضي حافلة بالشواهد.

وقد جاء الخطاب النبوي هنا حافلا بما يدل على توقير المتلقي وإجلاله، ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك توظيف أسلوب النداء بالصفة المحببة التي يعتز بها المتلقي ويفخر، هذه الصفة التي خلعها عليهم القرآن الكريم (الأنصار)... " يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ" في مفتح الخطاب، فلم يناديهم بأسماء قبائلهم أو بأسماء آبائهم ... وإنما قصد إلى ذلك تأكيدًا على شرف الانتماء الأشمل والأعم الذي ارتبط بهم دون غيرهم، وكانوا أحق به وأهله، وقد تكرر هذا النداء مرتين في وسط الخطاب. ثم كررت الصفة (الأنصار) في مختتم الخطاب خمس مرات.

إن ما يبدو من إجلال منتج الخطاب لمتلقيه لهو من عوامل التقارب بين طرفي الخطاب، وعامل له دوره في نجاح الرسالة وإزالة الفوارق أو الحواجز التي ربما ساعدت على صنعها وبروزها تفسير خاطئ لمواقف منتج الخطاب، أو سوء فهم من المتلقي لأفعال صدرت من المخاطب أنتجت ما جاء هذا الخطاب لمعالجته وإيضاحه.

وهذا الإجلال والتوقير في خطاب المتلقي من مراعاة الكياسة واللياقة، وليس إظهارًا للود الزائف أو التملق للآخرين الذي قد يؤثر سلبًا في العلاقات السوية، ولذلك أمثلة عديدة في واقع عمليات التفاوض الاجتماعي والإداري والسياسي.⁽²⁹⁾

عرض الحقائق المنحازة لصالح طرفي الخطاب المتكلم والمتلقي: يعمد أصحاب الخطابات المعاصرة إلى عرض الحقائق المنحازة لصالحهم فقط، وليت الأمر يقف عند كون ما يُعرض ينتهي إلى الحقائق الخالصة التي لا يشوبها شيء من الزيف، بل ويعمدون إلى الكذب المحض، في تقديم النفس إيجابيًا وتقديم الآخرين سلبًا.⁽³⁰⁾

لكنّ منتج الخطاب هنا صلى الله عليه وسلم حرص على عرض الحقائق المنحازة لصالح طرفي الخطاب المتكلم والمتلقي معًا، وهذا قلّمًا يوجد في خطابات الساسة - إن لم ينعدم - وإن وجد فهو لغرض خفي يصب في صالح المتكلم فقط. قال صلى الله عليه وسلم: "يا معشر الأنصار... أَلَمْ تَكُونُوا ضَلَالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،

وَعَالَةً فَأَعَانَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءَ فَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟" وكان الإقرار من المتلقين إجابة على هذا الاستفهام التقريري من المخاطب سريعاً: "بَلِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ وَأَفْضَلُ".

وفي جانب المتلقي كان التحريض من المخاطب - صلى الله عليهم وسلم - على استنطاقهم للبوح بما يمكن أن يردوا به من عرض لحقائق في صالحهم عن حسن بلائهم في الإسلام، وكأنه صلى الله عليه يقرأ ما يمكن أن توسوس به أنفسهم: "أَمَا وَاللَّهِ، لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ...". لكن هؤلاء المتلقين يمنعونهم حياؤهم من منتج الخطاب صلى الله عليه وسلم أن ينطقوا بذلك، هذا إن جال بخاطرهم أصلاً. فضلاً عن فقههم لأداب الخطاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أكدها القرآن الكريم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)" سورة الحجرات. فقام صلى الله عليه وسلم بعرض الحقائق المنحازة لصالح هؤلاء المتلقين لخطابه: "أَمَا وَاللَّهِ، لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصَدِّقْتُمْ، أَتَيْنَا مُكَذَّبًا فَصَدَقْنَاكَ، وَمَخَذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَأَوْيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَوَاسَيْنَاكَ".

ولننظر إلى تصاعد درجات هذا التحريض للمتلقين على عرض الحقائق المنحازة لصالحهم، حين يصف المتكلم أقوال متلقيه تلك بالصدق، ثم وَقَعَ ما يصدر عنهم من حقائق في المجتمع التي لن يشك أحد في نعمتها بالصدق أيضاً: "أَمَا وَاللَّهِ، لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصَدِّقْتُمْ"، ناهيك عن الاستعانة بالعناصر اللغوية المقوية للكلام بأعلى الدرجات (القسم بالله) لهذا التحريض، والتي تصدرت الكلام وتخللته أيضاً.

الإطراء: يعد الإطراء (Puffery) واحداً من الأساليب اللغوية التي يستعملها السياسيون في خطاباتهم لخلق الشعور بالاطمئنان في أوساط الجماهير من مخاطبيهم، وكذلك القائمون على الإعلانات التجارية التي تغص بها الشوارع وواجهات المحال التجارية ووسائل الإعلام.⁽³¹⁾ سواء كان ذلك في حق ذواتهم أو في حق مواقف أو سلوكيات تؤول في حقيقتها إلى أشخاصهم. ولا يخلو هذا الأمر عند السياسيين من بعض الكذب خاصة في الدعاية الانتخابية، لكسب مزيد من التأييد خاصة عند الحديث عن أنفسهم ومنجزاتهم السابقة.⁽³²⁾ أما عن الإطراء في حق المتلقين فهو نوع من استمالة هؤلاء وكسبهم في جانبه أو هو نوع من التملق أو النفاق السياسي خاصة إن شابه شيء من المبالغة.

وللإطراء مكانته في الخطاب الاجتماعي في جلسات الصلح العرفية التي تنتشر في كثير من المجتمعات العشائرية والقبلية والعائلية في الأقطار العربية، حيث يقوم أصحاب هذا الخطاب بتوظيف هذا الأسلوب في حق الطرفين معاً أملاً في تقريب الهوة بينهما وكسر الحواجز. وقلماً تخلو الجلسات الأسرية التي تعقد

للتعارف بغرض الزواج من هذا الأسلوب لخلق الشعور بالاطمئنان خاصة من جانب أهل الفتى تجاه أهل الفتاة، وفي بعض المجتمعات من الطرفين معاً.

أما عن الإطراء في الخطاب النبوي الذي نحن بصدده فلم يكن إلا إشادة بالدور الحقيقي الذي قام به المتلقون تجاه دينهم ونبيلهم، ولم يكن هذا الإطراء ممزوجاً بالمبالغة أو التملق بل كانت الواقعية والمصادقية أبرز سماته. وتزهر المقصد النبوي الشريف هنا عن نيل أي من المنافع الشخصية أو المكاسب الدنيوية أو إسكات الصوت المعارض كما هو الحال في بعض النظم قديماً وحديثاً؛ إنما كانت استمالة المخاطب والتذكير بدوره المحوري في المجتمع ومكانته بين مكونات ذلك المجتمع المتباينة في العرق واللون ... هي المقصد تمهيداً لعرض حقائق الموقف وتجليه جوانبه التي تغيب عن الكثيرين وإزاله لحالة الوجد التي عمت المخاطبين. ف جاء سرد المخاطب صلى الله عليه وسلم لمواقف النبيل والكرم والنصرة ... التي تحلى بها المتلقون عند استقبالهم له صلى الله عليه وسلم ومن هاجر معه في مدينتهم (يثرب): " أَمَا وَاللَّهِ، لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصَدِّقْتُمْ، أَتَيْنَا مُكْذِبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَأَوْيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَوَّسَيْنَاكَ".

الفخر بالانتساب لفئة المتلقي: تتصاعد درجات الإطراء للمتلقين من جانب منتج الخطاب دون أن يكون ذلك بالخصم من نقاط القوة لديه التي تصب مباشرة في مكونات شخصيته، وذلك عندما يبدي فخره بتمنيهِ الانتساب للفئة الاجتماعية التي ينتمي لها المتلقي أو المخاطب - متى امتلك رصيذاً حقيقاً من الأفعال والمواقف التي تقوي كلامه.

وهذا المسلك شائع في أساليب الدعاية الانتخابية في المجتمعات الحديثة، وهو أسلوب من أساليب خلق الشعور بالاطمئنان في نفوس المخاطبين، وتوكيد للثقة في منتج الخطاب وصولاً إلى إقناع المخاطبين والتأثير فيهم؛ أملاً في أن يحظى منتج الخطاب باختياره ممثلاً لهؤلاء المتلقين في المجلس النيابي أو غيره. وكم من لافتات دعائية نشرت عليها عبارات: انتخبوا " ابنكم"، " ابن الدائرة"، " ابن القرية"...! وقد لا يعرف صاحبها من القرية أو الدائرة غير اسمها. وربما لم ترمقه أعين أي من المخاطبين قبل الانتخابات إلا في وسائل الإعلام والدعاية.

أما عن فخر منتج الخطاب هنا بالمتلقين وتمنيه أن يكون منهم، فله وجاهته إذ المتلقون هم الأنصار ذوي المكانة المرموقة في المجتمع، والمقصد بعيد كل البعد عن تحقيق أية مكاسب دنيوية أو مآرب شخصية حاشاه أن يكون تملقاً أو نفاقاً... والمتلقون للخطاب يعرفون بما لا يحتاج إلى دليل أو توكيد صدق المخاطب في كل ما يقول... ورغم هذا يعمد المرسل صلى الله عليه وسلم إلى القسم الذي عرف به دون غيره " فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَوَلَا الْهَجْرَةَ لَكُنْتُ أَمْرًا مِنَ الْأَنْصَارِ "

ولم يقف أمر الإطراء عند تمني الانتساب للمتلقين من الأنصار إظهاراً لشرفهم وبيناً لمكانتهم عند المخاطب صلى الله عليه وسلم، بل تصاعدت درجة هذا الإطراء إلى اتخاذ أفعالهم قدوة، ونهجمهم مسلكاً دون غيرهم

من الناس" وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ". ولم يكن هذا القول من منتج الخطاب إلا نوعاً من التأكيد على مكانة المخاطبين وسداد مسلكهم، ولم يكن هذا القول إلا ليناً للجانب منه صلى الله عليه وسلم... دون أن تنال شخصيته أية انتقاصة من رصيد القوة لديه.

الدعاء: يلجأ بعض منتجي الخطابات إلى تذييل خطاباتهم ببعض الأدعية لإضفاء مسحة دينية على ما يقومون به أو يدعون إليه، وكسب مزيد من التأييد والكثير من المؤيدين، ولعل كثيراً من المتلقين والمحللين ممن يسجلون ملاحظاتهم على مضامين الخطابات يقفون عند المفتوح والختام وأنواع الاستشهادات في فقرات الخطاب. لعلني أذكر ما وُجّه من بعض الناس خاصة العامة من انتقاد في خطابات الرئيس المصري الراحل أنور السادات في سبعينات القرن الماضي إذ كان يبدأ خطابات بـ (بسم الله) فقط، دون أن يقول (بسم الله الرحمن الرحيم) مع أنه كان يُنعت في بعض سني حكمه بالرئيس المؤمن. فلَمَّا جاء خلفه حسني مبارك كانت كل خطابه تستفتح بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)، وختم أول خطاب له بالدعاء.⁽³³⁾

وقد ورد الدعاء في خطابات بعض الساسة المعاصرين من أمثال صدام حسين والملا عمر وأسامة بن لادن؛ لأن بعض الخطابات موجهة للمسلمين كافة، وتقرب من عقولهم، وكما صنع جورج بوش حين إعلان الحرب على أفغانستان والعراق.⁽³⁴⁾

لكن غرض الدعاء في الخطاب النبوي هنا غير غرضه في الخطابات السابقة، إن الغرض هنا تعبير عن مدى الحب لهؤلاء المتلقين الأنصار، وتعبير كذلك عن المكان العظيمة لهم في قلب مخاطبهم صلى الله عليه وسلم، وأن حرمانهم من العطاء لم يكن لتغير نظرة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم، وجاء التأكيد على هذه المكانة السامية لمخاطبيه أن دعا بالرحمة كذلك لأبنائهم وأبناء أبنائهم: "اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ".

الإثارة اللغوية: الإثارة اللغوية للمتلقى ليست هدفاً يرمي إليه المخاطب إنما هي وسيلة لاستنطاقه لينفجر بما يعتدل في صدره، وفي رد فعل أقوى للقيام بعمل ما أو عدة أعمال. وغالباً ما توظف الأساليب الإنشائية في هذه الوسيلة لأنها تعبر في الخطابات عن طلب من متكلم أعلى مرتبة لمخاطب أقل منه، وكثير من خطابات السياسيين والمصلحين تزخر بذلك.⁽³⁵⁾ حيث تنفجر جماهير المتلقين بصب اللعنات على الأعداء والدعاء عليهم بالويل والتُّبور، والقيام بنشر لافتات سَطَّرت عليها عبارات من أقوال هؤلاء الساسة في الساحات والشوارع والمدارس، وتعلو درجات الاستجابة لهذه الإثارة لتتجلى في خروج مظاهرات والقيام باعتصامات أو إضرابات أو القيام بما يسمى بالعصيان المدني.

وقد تحققت الإثارة اللغوية في الخطاب النبوي في طلب المتكلم من المتلقين بصيغة الاستفهام المنفي: "أَلَا تُجِيبُونِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟"، ولم يكن القصد هنا الإجابة بالإقرار وقد أجابوا: "بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ وَأَفْضَلُ" وكرروا الإجابة تلك؛ حياءً أن يَمُنُّوا على مخاطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم، وقد

فطنوا إلى ذلك المقصد فقالوا "وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمُنُّ وَالْفَضْلُ"، لقد كان المقصد من الاستثارة هو أن ترد جماهير المتلقين بما قدمته وتعدد بلاءها في الإسلام، فما كان من منتج الخطاب صلى الله عليه وسلم إلا أن تكلم بما منعهم أديهم في الخطاب مع نبهم من قوله، مُعِدِّدًا مآثرهم تجاهه صلى الله عليه وسلم "أَمَّا وَاللَّهِ، لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَلَصِدِّقْتُمْ، أَتَيْنَا مُكَدِّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَانصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَأَوْيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَوَاسَيْنَاكَ".

ولاشك أن تثنين مآثر المخاطب من جانب المتكلم مسحة حانية فيها تطيب للنفوس، ومخاطبة للود، وتلطيف لأجواء الخطاب بشكل عام.

التكرار: التكرار في حد ذاته وسيلة مهمة من الوسائل السحرية التي تعتمد على تأثير الكلمة المكررة في إحداث نتيجة إيجابية في العمل الفني المميز.⁽³⁶⁾ وهو وسيلة بلاغية مهمة يقصد إليها المتكلم لتقوية قوة المنطوق الإنجازية، يقولون إن الشيء إذا تكرر تقرر، والتكرار تعرفه الشفرتان المنطوقة والمكتوبة كتاهما، وإن كان تأثيره في بنية الشفرة المنطوقة التلقائية أقوى.⁽³⁷⁾ وللتكرار وظائف خطابية عدة عُبر عنها بالإفهام والإفصاح والكشف وتوليد الكلام والتشديد من أمره، وتقرير المعنى وإثباته.⁽³⁸⁾

فالتكرار إذن من خلال هذا التعريف ليس مجرد ألفاظ موضوعة في الخطاب أكثر من مرة، فليس هو ذلك التكرار المولد للرتابة والملل، أو التكرار المولد للخلل والهلهلة في البناء، ولكنه التكرار الذي يسمح لنا بتوليد بنيات لغوية جديدة باعتباره أحد ميكانيزمات عملية إنتاج الكلام، وهو أيضا التكرار الذي يضمن انسجام النص وتوالده وتناميته.⁽³⁹⁾

واللفظ المكرر - بوجه عام - مصدره الثورة، وهدفه الإثارة حبا أو بغضا في أي غرض من أغراض الكلام. كما أن التكرار مرتبط بقانون التردد من قوانين تداعي المعاني؛ ولذا يعد وسيلة تربوية من وسائل التقرير، ويرجع أثر التكرار إلى أنه يزيد المعنى المكرر تميزا من غيره.⁽⁴⁰⁾

وفي عشرات الخطابات يعمد المتكلمون إلى تكرار ألفاظ وعبارات يهدفون من خلالها إلى إيصال مفاهيمها الدلالية إلى المتلقين، كإبراز أهميتها، أو التمسك بها، أو التباهي بها، أو التحذير منها... أو غير ذلك من الدلالات التي تستشف من النص، والتي تعكس الاتجاه الفكري للمتكلم، سواء كان فرديا أو مؤسسيا. أو تعبيراً عن السياسة العامة لتلك المرحلة.

ولولا أن اللفظ المتكرر وما يكتنفه من دلالات لا يثير اهتماما عند المتكلم ما لجأ إلى تكراره، وما أصرَّ على أن ينقله إلى نفوس ووجدان مخاطبيه، أو من هم في حكم المخاطبين، ممن يصل إليهم القول على بعد الزمان والديار.⁽⁴¹⁾

وقد كرر المتكلم صلى الله عليه وسلم في خطابه هنا نداءه للمتلقين بأجمل لفظة يعتزون بها أطلقها القرآن عليهم " يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ"، وكررت اللفظة (الأنصار) خارج أسلوب النداء خمس مرات. فلم يناديهم بأسماء قبائلهم أو بأيها المؤمنون أو أيها الناس، وفي نداء المتلقي بما يحبه ويعتز به من ألقاب أو أسماء ما يشعره بالقرب منه والأنس به، والتكرار هنا فضلا عن كونه جذبا لانتباه هذا المتلقي لأهمية ما يليه من كلام، فإن فيه إشعارًا من المتكلم إلى المتلقي بالاعتزاز به وتوقيره، وأنه في بؤرة الاهتمام، والثناء على أدواره التي قام بها، واستشراق ما يُنتظر أن يقوم به من أدوار في المستقبل.

منطقية التفسير، وبراعة الإقناع: يلجأ بعض منتجي الخطاب - خاصة السياسي - إلى جذب انتباه متلقيهم بتخصيص قضايا معينة لموضوعات خطاباتهم، حيث يوضحون أولوية هذه القضايا بالتناول وتفسيرها وبيان سبب استحقاقها هذا الاهتمام.⁽⁴²⁾ أو تناول ظاهرة ما طفت على السطح، فيعمدون إلى تفسيرها والربط بينها وبين ظواهر أخرى تزيد من أهميتها، أو بيان خطورتها ومن ثم يمكنه أن يدخل إلى عقل المتلقي ويستلبه، وقد يصل الأمر إلى ما يسمى بالسيطرة على الجمهور (Audience Control).

ولم يكن منتج الخطاب هنا صلى الله عليه وسلم يعمد إلى التقليل من حجم المشكلة التي كانت باعثًا على هذا الخطاب ازدراءً من عدم إدراك المتلقي لها بكل أبعادها، وإنما هو البيان والتفسير لما غاب عن فكر المتلقين بما يعطي المشكلة حجمها الحقيقي والحيز الذي يجب أن تشغله من فكر المتلقي، وتوسيعًا للزوايا التي يجب أن تُرى بها، وليس تبئيرًا لها في الزاوية السلبية فقط. " يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، مَا قَالَةَ بَلَّغْتَنِي عَنْكُمْ؟ وَوَجْدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ؟.... أَوْجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا؟ تَأَلَّفْتُ قَوْمًا لِيُسَلِّمُوا؟ وَوَكَلْتُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ"

ولننظر إلى التوظيف الدلالي لتخير اللفظة (لُعَاعَةٍ) وقد جاءت في ثوب النكرة في موضعها ومن أعقبها من جار ومجرور (مِنَ الدُّنْيَا)، وسيق الاستفهام الإنكاري المتكرر ... بما يوحي بأن الأمر كله في غير محله، لقيمتها المتدنية، ومما يصعد بالإقناع درجة أعلى إعلان الهدف السامي الذي لأجله كان العطاء لهذه الفئة حيث ذهب لِسَهْمٍ من سهام الصدقات هم يعرفونه جيدًا، إنه لفئة المؤلفة قلوبهم.

وقد كان التناول الموضوعي للمشكلة في الخطاب بتفسيرها وتوضيحها وشرح ملاساتها، وبيان الظروف التي أحاطت بها؛ حتى يصل المتلقي إلى قناعة تامة بحجمها وحدودها - كان هذا التناول حافزًا لتسليط الضوء على ما هو أكثر أهمية وأجدي نظرًا حيث بيان ما حدث من التغير الجذري والمحوري في حياة القوم (المتلقين) العقدية والاقتصادية والاجتماعية، والمكاسب العظيمة التي نالوها، وأجلها وأشرفها معية مخاطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. " أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ، وَأَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ.... أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فِي رِحَالِكُمْ؟"

وقد وظفت مجموعة من الأفعال التي تحمل من الطاقات التعبيرية ما يدفع بمؤشر الإقناع إلى درجات أعلى، حيث غيرت رؤية المتلقين إلى حسن الظنّ بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فجاءت الأفعال الماضية: هَذَاكُمْ، أَغْنَاكُمْ، أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، فعندما سلك أسلوب العتاب، وظف الفعل الماضي، مذكراً إياهم بالفضائل التي تحققت في زمن ماضٍ، وفي هذا دافع قوي للاقتناع.⁽⁴³⁾ ثم جاء توظيف الفعل المضارع ليعقد مقارنة تستحضر صورتها وكأنها ماثلة أمامهم بين مكاسب الناس (يذهب الناس بـ....)، ومكسبهم الثمين إذ (تَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

وفي الختام، فقد سعت هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الخطاب الاجتماعي الذي تتسع دوائره من نطاق الأسرة إلى نطاق العائلة أو العشيرة إلى نطاق شبه رسمي تمثله التنظيمات النقابية والمهنية. وجاء تناول الوظائف التي يقوم بها هذا النوع من الخطابات إبرازاً لأهميته وتثميناً لدوره. كما جاء تحليل الخطاب الاجتماعي النبوي في الأنصار لإصلاح ذات البين مركزاً على العناصر الثلاثة لمكونات الخطاب: المرسل والرسالة والمتلقي، وكيف كانت اللغة في تمثلاتها في هذا الخطاب كاشفة عن وعي المرسل بدوره في صياغة الرسالة وفهمه للمتلقى وطبائعه وإدراكه لفعالية الوسائل أو الاستراتيجيات التي وظفها لتحقيق هدفه، ومبرزةً وعي المتلقين بأدوارهم في فهم الرسالة ودلالات مكوناتها، وهو ما ظهر في تجاوزهم معها على المستوى القولي والفعل.

هوامش البحث:

- (1) القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين ، ت 671هـ): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2 (1384هـ- 1964م) 2/1.
- (2) انظر: عبد القاهر الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، ت 471هـ): دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط3 (1413هـ - 1992م) 88/78/1.
- (3) انظر: د. عيسى عودة برهومة: تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، في مجلة: عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع1، المجلد 36 (يوليو- سبتمبر 2007) ص121.
- (4) انظر في ذلك: مصطفى أحمد قنبر: الخطاب السياسي في الصحف الحزبية المصرية - دراسة معجمية دلالية، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة (2001م) ص16.
- (5) الجاحظ (عمرو بن بحر بن، أبو عثمان، ، ت 255هـ): البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت (1423 هـ) 1/131.
- (*) يُنظر في بعض القرى في مصر - خاصة في الصعيد - لبعض أبنائها ممن يتحدث اللهجة القاهرية أثر إقامته للدراسة ثم العمل في القاهرة عند زيارته للقرية - على أنه نوع من التعالي أو الكبر، الأمر الذي يشكل حاجزاً نفسياً بينه وبين مخاطبيه، بينما ينعت بالإصالة من كان لسانه وفيّاً للهجة قريته وإن تظاهر بذلك طيلة إقامته القصيرة في القرية.
- (6) د. على رزق: نظريات في أساليب الإقناع - دراسة مقارنة، دار الصفوة، بيروت، ط1 (1414هـ- 1994م) ص 116.
- (7) د. عيسى عودة برهومة: تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، في مجلة: عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع1، المجلد 36 (يوليو- سبتمبر 2007) ص125.
- (8) د. تمام حسان: اللغة العربية ملناها ومعناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2 (1979م) ص372.

- (9) عرض لهذه الوظيفة في الخطاب السياسي ودعمها بأمثلة قبلي: د. أحمد بن راشد بن سعيد في بحثه الموسوم بـ (قوة الوصف - دراسة في لغة الاتصال السياسي ورموزه)، كما عرض لها باقتضاب من البحث السابق. د. عيسى عودة برهومة، في بحثه (تمثلات اللغة في الخطاب السياسي). انظر:
- د. أحمد بن راشد بن سعيد: قوة الوصف - دراسة في لغة الاتصال السياسي ورموزه، في مجلة: عالم الفكر، ص 217.216.
- د. عيسى عودة برهومة: تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، في مجلة: عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع1، المجلد 36 (يوليو - سبتمبر 2007) ص 135.
- (10) انظر: أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (1352هـ - 1933م) 355.316/1.
- (11) د. هدسون: علم اللغة الاجتماعي، ترجمة د. محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، ط2 (1999) ص 180-181.
- (12) انظر: محب الدين الطبري (أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد، محب الدين الطبري، ت694هـ): خلاصة سر سيد الدشر، تحقيق: طلال بن جميل الرفاعي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط1 (1418هـ - 1997م) 38/1. وأبو مدين الفاسي (أبو مدين بن أحمد بن محمد بن عبد القادر بن علي الفاسي، ت1132هـ): مستعذب الإخبار بأطيب الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (1425هـ / 2004م) 107.106/1.
- (13) انظر: أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب، ج 4-1/1.
- (14) انظر في ذلك: د. حليم بركات: المجتمع العربي المعاصر - بحث استطلاعي اجتماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط6 (1989م) ص 63 وما بعدها.
- (15) انظر: جريدة الأهرام المصرية في 2016/5/31م <http://www.ahram.org.eg/NewsPrint/519692.aspx>
- (16) انظر ما جاء في إحدى جلسات الصلح بين عائلتين في فلسطين في: <http://elagha.net/11880>
- وجلسة الصلح العرفية بين عائلتين بالقنطرة في مصر في: <https://www.youtube.com/watch?v=erOHxGklArg>
- (17) الهيثمي (أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، ت807هـ): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة (1414هـ - 1994م)، 30-29/10.
- (18) ابن هشام (عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين، ت213هـ): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط2 (1375هـ - 1955م) 495-494/1.
- (19) الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، 30-29/10.
- (20) الجاحظ: البيان والتبيين، 14-13/2.
- (21) ابن الأثير الجزري (مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، ت606هـ): النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت (1399هـ - 1979م) 4/1.
- (22) انظر: د. حنان محمد مهدي العقيدي: لغة الحكمة وإقناع المخاطب في أسلوب الخطاب النبوي: في مجلة: العميد، مركز العميد الدولي للبحوث والدراسات، بغداد، العدد الخاص (1434هـ - 2013م) ص 242.
- (23) انظر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: الموسوعة الإسلامية العامة، إشراف د. محمود حمدي زقزوق، القاهرة (1424هـ - 2003م) ص 234.

- (24) انظر: فان دايك: الخطاب والسلطة: ترجمة غيداء العلي، ترجمة وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1 (2014م) ص372.
- (25) محمد التحريشي: ترجمة مقدمة كتاب: اللغة ذلك المجهول، ص 214.
- (26) د. على رزق: نظريات في أساليب الإقناع. دراسة مقارنة، دار الصفوة، بيروت، ط1 (1414هـ-1994م) ص98.
- (27) لعل علماء النفس الذين صاغوا قوانين التعلم ومن أشهرهم ثورنديك (Thorndike) بعد تجارب مع بعض الحيوانات في فهم المثير ومن ثم الاستجابة له - ما يؤكد هذا الأمر. انظر في ذلك: جورج إم غازدا: نظريات التعلم، ص 47 وما بعدها.
- (28) لعل من أشهر ما كتب في ذلك كتاب: فان دايك: الخطاب والسلطة: ترجمة غيداء العلي، ترجمة وتقديم: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1 (2014م) وانظر: د. عيسى عودة برهومة: فان دايك: التباسات الخطاب والسلطة، في: جريدة العربي الجديد:
<https://www.alaraby.co.uk/supplements/2015/2/8/>
- (29) انظر: د. حسن محمد وجية: مقدمة في علم التفاوض، ص 120
- (30) انظر: فان دايك: الخطاب والسلطة: ص 403. وما بعدها.
- (31) انظر: د. أحمد بن راشد بن سعيد: قوة الوصف. دراسة في لغة الاتصال السياسي ورموزه، ص225.
- (32) انظر في ذلك: مصطفى أحمد قنبر: مستويات التحليل اللغوي للدعاية الانتخابية للأحزاب السياسية في مصر - انتخابات عام 2000 نموذجًا، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة (2006م).
- (33) استمع إلى جانب من أول خطاب لمبارك في: https://www.youtube.com/watch?v=j_jHmNkn054
- (34) د. عيسى عودة برهومة: تمثالات اللغة في الخطاب السياسي، في مجلة: عالم الفكر ص145
- (35) المرجع السابق، ص145.
- (36) عبد الفتاح يوسف: مجلة فصول، ص31.
- (37) د. محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة (2014) ص248.
- (38) المرجع السابق، ص178-179.
- (39) د. أبوبكر العزاوي: الخطاب والحجاج، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1 (2010) ص 49. وانظر: دليلة قسيمة: استراتيجيات الخطاب في الحديث النبوي، مذكرة مقدمة لنيل الماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر (2011-2012م) ص167-168.
- (40) د. عز الدين على السيد: التكرير بين المثير والتأثر، عالم الكتب، بيروت، ط 2 (1407هـ-1986م) ص136.
- (41) المرجع السابق، نفس الصفحة.
- (42) د. أحمد بن راشد بن سعيد: قوة الوصف - دراسة في لغة الاتصال السياسي ورموزه، ص 218 وما بعدها.
- (43) حورية رزقي: لغة الخطاب التربوي في صحيح البخاري بين التبليغ والتداول، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم، جامعة محمد خيضر بسكرة كلية الآداب واللغات، الجزائر (1435-1436هـ / 2014-2015م) ص 148.